الإعداد للدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

الدكتور أحمد كمال أبو المجد

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

الإعداد للدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

الدكتور أحمد كمال أبو المجد

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

الإعداد للدور الحضاري
للأمة المسلمة في عالم الغد

الدكتور أحمد كمال أبو المجد(*)

إن القفز على حقائق الواقع وتجاهل عناصره الأساسية والمباهاة بدلاً من ذلك بدور حضاري رائد – قبل إصلاح الجبهة الداخلية– لا يمكن أن يكون إلا إمعانًا في الوهم، وإسرافًا في التمني، لا يتغير بهما حال ولا تقوم بهما نهضة.

ليس من المنهج السليم في الفكر والحركة أن يتوجه المسلمون إلى الاشتغال بأمر الدور الحضاري لأمتهم المسلمة في عالم الغد، قبل أن يتوجهوا إلى التأمل الموضوعي الجاد في واقعهم أفرادًا وجماعة، وقبل أن يعترفوا بما ينطوي عليه هذا الواقع من ثغرات وعثرات كبيرة.. اعترافًا يفتح الباب لتدارك الحال، وإصلاح (جبهتهم الداخلية)، إن صح هذا التعبير.. ذلك أن القفز على حقائق الواقع وتجاهل عناصره الأساسية والمباهاة –بدلاً من ذلك– بدور حضاري رائد يمارسه المسلمون متقدمين على سائر الأمم والشعوب، لا يمكن إلا أن يكون إمعانًا في الوهم، وإسرافًا في التمني، لا يتغير بهما حال ولا تقوم بهما نهضة.

إننا لا ننسى في غمرة الشعور بالأزمة التي تعيشها الشعوب المسلمة المعاصرة، أن لأمتنا رسالة لا تملك إلا أن تؤديها، وهي رسالة قضى بها قوله سبحانه وتعالى:

(*) أكاديمي.. ووزير سابق.. (مصر).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾البقرة:143).. كما حدد جوهر مضمونها قوله تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:110).

كذلك لا يملك أحد، مسلمًا كان أم غير مسلم، أن يتجاهل الحقيقة التاريخية التي تشهد بدور المسلمين في نشر العلوم والمعارف داخل حدودهم الجغرافية ووراء تلك الحدود، امتدادًا إلى قلب أفريقيا، ومراكز النهضة في العواصم والمدن الأوروبية وإلى أجزاء مترامية من قارة آسيا.. ولا زالت أسماء وجهود عشرات من العلماء الرواد من العرب والمسلمين تتردد في موسوعات العلوم، ومدونات المعارف النظرية والتجريبية في الشرق والغرب على السواء.. فأسماء ابن الهيثم وابن حيان وابن سينا وابن رشد قد صارت جزءًا مشتركًا من أجزاء التراث العلمي والإنساني.. وإن تكلم أصحابها العربية ودانوا بالإسلام.

ولكن الذي نذهب إليه وندعو إليه في مقدمة هذا البحث هو ضرورة تصحيح النظر إلى القضية كلها، بدءًا بتصحيح الفكر الديني السائد في العالم الإسلامي، مرورًا بإصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية في أقطار ذلك العالم المحسوب على الإسلام.. حتى إذا تم لنا ذلك، ولو على مستوى البحث والنظر، أمكن الحديث -بعد ذلك- عن معالم الدور الحضاري الذي يمكن أن يؤديه المسلمون في عالم الغد.

ذلك أن الحديث عن دور حضاري يؤديه المسلمون في عالم الغد لا يمكن أن يستند إلى مقولات نظرية تعبر عن معالم الإسلام وحضارته، كما تستخلص من إطاره المرجعي بمصدريه الرئيسين الكتاب والسنة.. فالكتاب والسنة ليسا إلا خطابًا موجهًا للمسلمين.. ولكن أوضاعهم لا تتحدد بوجود هذا الخطاب، وإنما تحدد بمدى

استجابتهم له، وإقامة أمورهم على أساسه.. وتتحدد كذلك بمؤثرات عديدة، لا يتصل بعضها بالإسلام، قدر اتصاله بملابسات وظروف سياسية واقتصادية اجتماعية. فالقضية في النهاية ليست قضية الحضارة الإسلامية بقدر ما هي قضية (الأمة الإسلامية).

والمتأمل في حضارة الأمة الإسلامية تستوقفه ظاهرتان أساسيتان يتعين الالتفات إليهما والتسليم بوجودهما قبل التوجه لعرض مشروع إسلامي للنهضة يساهم به المسلمون في الحضارة العالمية مع مطلع القرن الحادي والعشرين.

الظاهرة الأولى:

المفارقة الهائلة بين مبادئ الإسلام وقيمه ونظمه كما حددتها مصادره المكونة لإطاره المرجعي، وبين واقع المسلمين وماضيهم القريب في أكثر جوانبه إن لم يكن فيها جميعًا.. وقطعًا للطريق على المكابرين والمغالطين القانعين بالحديث عن الأمجاد القديمة والاشتغال بها عن الواقع السيء الذي تعيشه الأمة، نشير -مجرد إشارة- إلى المفارقات الآتية:

1- أن الأمة التي بدأ وحي السماء إليها بقوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلق:3-5)، والتي يقرر نبيها ﷺ أن «**الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ**»[1]، **وأن مدادهم يوزن يوم القيامة بدم الشهداء**[2]، هذه الأمة لا تزال الأمية غالبة على كثير من أقطارها، ولا يزال المستوى الثقافي العام فيها على درجة من التدني تحول بينها وبين أن تقدم للبشرية شيئًا جديدًا نافعًا، في زمن تعاقبت فيه على الدنيا ثورات علمية متعاقبة، زادت معها الفجوة اتساعًا بين عالم يأخذ بالعلم ويتقنه ويجوده ويوظفه، وأمة لا يزال التفكير الخرافي المنسوب ظلمًا وجهلاً للدين ينخر في

(1) أخرجه الترمذي.

(2) إشارة للحديث الذي أخرجه القرطبي في جامع بيان العلم وفضله، عن أبي الدرداء: «**يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ وَدَمُ الشُّهَدَاءِ**».

عظامها ويستولي على عقول العامة فيها!

2- أن الأمة التي جَعل كتابها الذي تؤمن به وتتعبد بتلاوته، من العمل فريضة دينية بقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ ﴾(التوبة:105)، كما جعل إتقان ذلك العمل فريضة متممة له بقوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ**»[1]، هذه الأمة سقطت في أكثر بلادها قيمة العمل.. فقل حجمه، وتراجع مستوى أدائه، وغلبت عليه النمطية والتقليد، وزال عنه الإبداع والتجديد والابتكار، فتراجعت مع هذه الأمور كلها فرصته المعقولة لمنافسة الآخرين، وللتصدير إلى بلادهم وأسواقهم!

3- أن الأمة التي أعلن لها ربها أنها، تحت لواء الإيمان به، ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾، وعلمها نبيها ﷺ: أن المسلمين «**يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ**»[2]، هذه الأمة تفرقت عبر القرون شيعًا وأحزابًا وجماعات متنافرة متصارعة: ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾روم:32)، ومد كثير من حكامها وساستها ومثقفيها أيديهم إلى من سوى العرب والمسلمين، طلبًا للمساندة، أو المعاونة، أو الحماية.. ولم يقف الأمر عند هذا، وإنما اشتعلت بين كثير من أقطارها منازعات حدودية وسياسية واقتصادية.. حتى صار اختلاف تلك الأقطار حول أي قضية، وفي غير قضية، عادة غالبة وطبعًا سائدًا!

4- أن الأمة التي أقيم نظامها السياسي على (الشورى).. ولم يكن أحد من جيلها الأول أكثر مشورة من نبيها ﷺ .. هذه الأمة، هي اليوم من أقل دول العالم احتفالاً بإشراك الرعية في أمورها. وإذا فعلت ذلك أو فعلته بعض أقطارها، أحاطته بقيود وسدود تكاد تأخذ من الشورى شكلها ومظهرها، وتهجر مضمونها وجوهرها..

(1) أخرجه البيهقي عن عائشة، رضي الله عنها، وحسنه الألباني.
(2) أخرجه أحمد وأبو داود: «**الْمُسْلِمُونَ ... يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ... وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ**».

وهو حال لا تقف آثاره السياسية والاجتماعية عند حد إضعاف نظام الحكم، وانصراف الرعية عن الاهتمام الجاد بأمورها، وإنما تمتد هذه الآثار لتفسد بها الطباع والأخلاق، وتستعلن في ظلالها ظواهر الكذب والنفاق والرياء وشهادة الزور في الأمور العامة والخاصة على السواء!

5- وتمتد المفارقة بين (الواقع) و(المثال) لتصل إلى قضية من أخطر القضايا وأكثرها نصيبًا من اهتمام الساسة والحكام والمفكرين في عصرنا هذا، وهي قضية الحقوق والحريات.. وأكثر المسلمين اليوم بين غافل عنها، ذاهل عن قيمتها وعن موقعها من عقيدة الإسلام وشريعته.. متهم للذين يجعلون منها قضية القضايا في تقييم أحوال الأمم والشعوب.. وبين مشارك في تغييب الحقوق والحريات، والتطاول عليها، إن لم يكن بالعدوان الإيجابي فبالسكوت الآثم عن مظاهر ووقائع ذلك العدوان!

أما الظاهرة الثانية:

فهي انتشار حالة (الجفاء) و(التباعد) بين المسلمين وبين سائر الأمم والشعوب.. وهو جفاء تجاوز حده حتى استحال إلى سوء ظن شديد، وإلى اتهام المسلمين بكل نقيصة، وتصوير دينهم وثقافتهم كلها على أنهما يمثلان خطرًا داهمًا على مسيرة سائر الشعوب نحو مزيد من الديمقراطية والحرية على نشر الإسلام!!

والواقع أن هذه الظاهرة قد أمكن لها أن تقوم وأن تستحكم ويتعاظم تأثيرها نتيجة (الضعف العام) الذي أصاب الأمة.. على نحو تراجع معه على نحو مطرد، تأثيرها على الآخرين، وعلى مجريات أمور السياسة والحرب والاقتصاد.. ومن أعجب العجب أن العرب والمسلمين قد اختاروا في لحظة تاريخية غير بعيدة (هي أوائل السبعينيات وأواسطها) أن يذهلوا تمامًا عن حقيقة هذا الضعف العام وأن يتحدثوا عن

أنفسهم باعتبارهم سادس قوة في الوجود!! وكان ذلك وهمًا صنعه غرور الاعتقاد بأنهم – بما يملكونه من آبار النفط– قادرون على التحكم في العالم وفرض إرادتهم عليه.. وهو وهم دفع العرب والمسلمون له ثمنًا باهظًا ولا يزالون يدفعون.

كذلك ساهم في تعاظم هذه الظاهرة وقوع بعض المتحدثين عن الإسلام والداعين إليه في أخطاء فاحشة عرضوا معها الإسلام عرضًا مشوهًا يحكي ضيق صدروهم وضيق عقول بعضهم، وفساد مزاج الكثيرين منهم.. ولا يحكي أبدًا سماحة الإسلام، ورفقه بالناس جميعًا، ودعوته العامة للتعاون على البر.. ومنع التعاون على الإثم والعدوان. واستفاد الخائفون من الإسلام والكارهون له من هذه الخطايا.. فقالوا: شهد شاهد من أهلها.. هذا هو الإسلام وهؤلاء هم المسلمون!! فراجت وذاعت حملات إعلامية نشطة صدت عقول الناس وقلوبهم عن الإسلام وحضارته.. وصورته وصورت المسلمين جميعًا كما لو كانوا سيفًا مسلطًا على سائر الناس، يخشى منه على مسيرة الإنسانية (المتوحدة) أو (المتعولمة) من مخاطر العنف والسعي إلى استبعاد (الآخر) غير المسلم ونشر ثقافة (القسر والإكراه)!!

لذلك كله، قلنا، ولا نزال نقول: إن المسلمين لا يملكون أن يقفزوا فوق الواقع المليء بالثغرات، وأن يزعموا –بالتصريحات المعلنة، والشعارات المرفوعة– أنهم الأمناء على مسيرة الإنسانية، والأوصياء على أهلها، والقادرون وحدهم على ترشيد مسيرتها.. بل لا بد أولاً من إصلاح ذات البين، وتصحيح العلاقة مع الآخرين.. حتى يسود بين الأطراف إحساس بالمعية وبالصحبة على الطريق، وبالحاجة إلى تبادل الخبرة والمعرفة والحكمة.

عند هذا وليس قبل هذا، يمكن البحث فيما يستطيع المسلمون، تحت ظلال دينهم وحضارتهم الإنسانية، أن يقدموه لأنفسهم وسائر الناس مع مطلع القرن الجديد.

فإذا تحقق لنا -نحن العرب والمسلمين- إنجاز هذا الإصلاح الداخلي أو إنجاز جانب كبير منه على الأقل، كان على علمائنا وساستنا ومثقفينا وأجهزة الإعلام ومؤسساته عندنا أن يقدموا جوابًا واضحًا صريحًا محددًا لسؤال كبير.. هو:

ما هي عناصر الإسهام الذي يملك المسلمون أن يقدموه لسائر الأمم والشعوب، وهي تدخل من باب واحد ساحة قرن جديد مليء بالفرص المتاحة، وآمال التقدم السريع ؟؟ ومليء كذلك بأخطار يُرى أقلها ولا يرى أكثرها ؟

وهل يستطيع المسلمون باسم دينهم وحضارتهم، واستمدادًا من ينابيعها الأصيلة الصافية أن يضيفوا جديدًا إلى التجربة الطويلة والخبرة المتراكمة لسائر الشعوب ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال الكبير ليست إلا وجهًا آخر للتساؤل عن خصائص (الثقافة الإسلامية) ومعالمها الكبرى.. إذ أن هذه الخصائص هي التي تحدد (ميادين) و(نوع) المساهمة الإسلامية في مشروعات النهضة العديدة التي تتطلع إليها شعوب العالم في مستهل القرن الجديد.

ونستطيع في شيء غير قليل من التبسيط ومن التعميم، أن نعرض الخصائص الآتية للثقافة الإسلامية، وكلها ذات انعكاس مؤكد على ما يستطيع المسلمون تقديمه للعالم خلال السنوات المقبلة من القرن الحادي والعشرين.

أولاً: إنها ثقافة إيمانية، يحتل الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر مكان القلب من كل شعبها وروافدها.. وهذه السمة ليست أمرًا جانبيًا أو هامشيًا، إذ أن الإيمان تتداعى معه -بطريق اللزوم- معالم عديدة، في مجال الاعتقاد، ومجال السلوك الإنساني الفردي والجماعي على السواء، وذلك كله على نحو تتميز به الحياة في ظل ثقافة إيمانية عن الحياة في ظل ثقافة (عدمية) (مادية).. لا يربط أجزاءها رباط تتصل جذوره بالعقيدة المحورية.

فالإيمان بالله –أمان حقيقي من الاستعلاء الظالم على الآخرين، وأمان من تورط الأفراد والجماعات في أعمال (العدوان) والجور بصورها العديدة، التي توشك أن تفسد (العلاقات الإنسانية) إفسادًا كاملاً على النحو الذي ترتفع منه الشكوى هذه الأيام.. ذلك الإيمان يفجر في الإنسان الفرد وفي الجماعة المنظمة معنى المراقبة.. ومراقبة الله عصمة للجماعات من صور الطغيان التي تخشى الإنسانية اليوم عودتها في صور قديمة وجديدة مع مطلع القرن الجديد.. ولقد نبه القرآن الكريم إلى مخاطر هيمنة الذين يؤمنون ولا يتقون:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾(التوبة:8)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ (الممتحنة:13).

ثانيًا: إنها خلافًا لما يتصوره عامة المسلمين، **ثقافة عقلانية**، تقوم على العلم، وتعتبر العقل أداة صالحة للمعرفة.. وإذا كان المسلمون المحدثون قد قصروا في الالتزام بهذه السمة من سمات حضارتهم، وتصور كثير منهم، غلطًا ووهمًا ونقص علم، أن العقل نقيض النقل، وأن انتصارات العقل التي تتحقق عند الآخرين لا بد أن تمثل انتقاصًا من الإيمان، فإن علينا اليوم أن نصوب ونصحح وأن نمحو آثار هذه الأوهام الضارة القاتلة، وأن نعيد أمتنا من جديد أمة علمٍ ومعرفة وطلبٍ للحكمة أنىَّ تكون.. فـ«**الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[1].

ومن الأمانة والصدق مع الله تعالى ومع النفس أن نعترف بتقصيرنا الذي طال

(1) أخرجه الترمذي في كتاب العلم.

مداه في تشجيع العلم والتعلم والإبداع. وما لم نعترف بهذا الخطأ الحضاري الذي يصل إلى حد الخطيئة، وما لم نعد (العقل المسلم) إلى عرشه الذي نحي عنه، وما لم نشجع الإبداع والتجديد واقتحام المجهول في شتى ميادين العلم، فإن الحديث عن دور رائد للمسلمين في نهضة الأمم والشعوب لن يكون إلا أماني.

وينبغي في هذا المقام أن نحدد طبيعة هذا الإسهام المنتظر، فهو ليس إسهامًا متفردًا نحوز نحن أسبابه ولا يحوزها الآخرون.. بل هو في حقيقته رجوع إلى الحق وعودة إلى الصف من جديد.. ومشاركة قائمة على الندية والاشتراك في التوجه، مع جميع السائرين على طريق العلم والمعرفة والإبداع.. والطريق إليه -داخل البيت العربي والمسلم- يبدأ برفع الوصاية عن العقول، وتشجيع الجيل الجديد على ممارسة (النقد) العقلي، والاحتفاظ بالاستقلال إزاء فكر (الآخرين)، والالتزام الصارم في البحث والتعلم وفي التعبير والحديث بأصول المنهج العلمي الصحيح في طلب المعرفة.. وهو منهج تعارف عليه العلماء على اختلاف ثقافاتهم وأوطانهم.. وبقي أن تتعرف عليه أجيالنا الناشئة من جديد.

ثالثًا: إن ثقافتنا الإسلامية ثقافة إنسانية وليست ثقافة خاصة بأمة دون أمة، أو قطر دون قطر، أو سلالة بشرية دون سلالة، أو طبقة اجتماعية أو سياسية دون سائر الطبقات.. فقد ارتفعت دعوة الإسلام من أول يوم في مسيرتها فوق عوارض الأصل واللون واللغة، فتحت لوائها: «**الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ**»[1]، والتكريم الذي قرره القرآن الكريم تكريم لبني آدم جميعًا: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء:70)، والمخالفون حتى ولو كانت مخالفتهم في الدين والعقيدة.. لهم دينهم ولي دين.. ولهم في مجتمع المسلمين حقوق وحريات وضمانات لا يملك حاكم أو محكوم أن ينال منها.. وأساس

(1) أخرجه الطبراني في الكبير.

العلاقة معهم تعاون على البر، وتراحم وتبادل للمنافع، وتسابق إلى الخيرات: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:8).. والدعوة الإسلامية في إطار هذه الثقافة دعوة عامة لأهل الكتاب جميعًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران:64).

ولقد دخلت في الإسلام شعوب ذات أصول عنصرية متباينة، فما وجدوا إلا حرية وكرامة ومساواة كان من ثمراتها أن قدموا جميعًا عطاءً ثريًا نافعًا.. لا تزال آثاره موثقة في أسماء العلماء والفقهاء والفلاسفة والصوفية الذين تركوا بصمات واضحة بارزة في الثقافة الإسلامية.. وحسبنا أن نشير إلى أسماء سلمان وصهيب وبلال من صحابة رسول الله ﷺ، وأن نشير إلى أسماء تعاقبت عبر الأجيال وفي سماوات العلوم والمعارف المختلفة من أمثال ابن سينا والبخاري وابن رشد والقرطبي وولي الله الدهلوي وصلاح الدين الأيوبي وجمال الدين الأفغاني وكثيرين غيرهم.

رابعًا: إنها ثقافة عطاء وبذل قبل الأخذ والطلب، تعنى بالواجبات عنايتها بالحقوق.. بل إن الحقوق في لغة القرآن الكريم تستخدم بمعنى الواجبات.. وتتناول العلاقة بين صاحب الحق وصاحب الواجب من زاوية هذا الأخير. يقول تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾(الأنعام:141).. ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ (المعارج:24-25).

وفي هذا تختلف الثقافة الإسلامية عن أكثر الثقافات المعاصرة، وهو اختلاف له ثمرته الكبرى الفارقة التي تفتح الباب لإسهام إيجابي هام يمكن أن يقدمه المسلمون لبناء حضارة إنسانية للقرن المقبل.

وبهذا الإسهام تتحول الأنانية والجشع الفردي إلى تكافل اجتماعي وإلى تبادل للعطاء.. وبه تزدهر مؤسستان من أهم مؤسسات الاستقرار والأمن الاجتماعي، وهما مؤسسة الأسرة ومؤسسة الجوار.

خامسًا: إن للإسلام وثقافته منهجًا متميزًا في الإصلاح.. يبدأ مسيرة التغيير بالدوائر القريبة، ثم يمتد بها خطوة خطوة إلى الدوائر الواسعة البعيدة.. فهو يبدأ الإصلاح بإصلاح (الذات الفردية) فكرًا وشعورًا وسلوكًا.. وذلك اتباعًا لهذا المنهج من ناحية، وتوكيدًا لمبدأ (شخصية المسؤولية)، من ناحية أخرى: ﴿... وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام:164)، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم:95).. لذلك يقول النبي ﷺ: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ**»[1].

ثم تمتد جهود التغيير والإصلاح إلى أقرب الدوائر للإنسان الفرد وهي أسرته الصغيرة، ثم الأقربون: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم:6)، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ (الإسراء:23)، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:214)، ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال:75).

وبعد دائرة (النفس) ودائرة (الأقربين)، تأتي في منهج الإصلاح الإسلامي دائرة (الجوار) وهي دائرة أوسع وأبعد، ولكنها أرحب وأكبر، فما من أحد إلا وله جيران عن يمين وشمال.. وقد توسع الإسلام في رعايتهم، ومنحهم حقوقًا، مازال جبريل عليه السلام يوصي بها الرسول ﷺ حتى ظن أنه سيورثهم من تركته[2].. وإذا استقرت علاقات المودة والتعاون والتكافل بين الجيران، فقد تحقق -على مستوى العالم كله-

(1) أخرجه مسلم.

(2) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري عن عائشة، رضي الله عنها: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**» .

نصف الإصلاح.. واستقر نصف السلام العالمي، وحسبنا أن نذكّر مرة أخرى بالخلافات المستعرة على الحدود والمناطق المشتركة، والموارد الطبيعية المشتركة.. وهي خلافات تهدد بوقوع حروب قد يبدأ بعضها بين جانبين، ثم تستدرج إليها أطراف قريبة منهما أو بعيدة.

وأخيرًا تأتي دعوة الإسلام العامة للسلام والتعاون على الخير.. وهي دعوة كما قدمنا تتجاوز حدود القرب والجوار.. والوصول إلى تحقيقها ميسور إذا تحقق السلام واستقرت علاقات المودة بين أهل الجوار.

أما أن يبدأ الإصلاح بالدائرة الأبعد والأوسع متحركًا نحو الدوائر الصغيرة، فمنهج دل التاريخ على صعوبته وتعقيده وتضاؤل فرص نجاحه.

وليس من شك في أن الأديان السماوية تقوم جميعها على منهج الإصلاح الإسلامي الذي أشرنا إليه، ولذلك فإن أتباعها، أيًا كانت انتماءاتهم الثقافية الأخرى، مطالبون بوضع أيديهم في أيدي المسلمين، ليقدموا في ثقة وتواضع هذا الإسهام الإصلاحي الكبير الذي تتطلع إليه الشعوب بعد أن فسدت العلاقات، وتقطعت المودات، وصارت أهوال الحروب أقرب وقوعًا مما يظن الكثيرون ممن أصمَّت أسماعهم نداءات (العولمة) وتقارب الشعوب.. فأذهلتهم عن صراعات هائلة حول المصالح الخاصة للفئات والطبقات والدول.. يجرى تحت ندائها البراق، تحقيق المصالح الذاتية للبعض على حساب البعض.. مما يؤجل وقوع ظواهر العنف وتبادل العنوان.. دون أن يزيل أسبابها أو يجتث من الأرض بذورها وجذورها.

سادسًا: قام الإسلام وقامت ثقافته من أول أيام على أساس الإيمان بالتعددية، إيمانًا لا تحركه بواعث سياسية، ولا تتحكم فيه ملابسات ظرفية، وإنما يصدر عن إيمان بأن التنوع سنة من سنن الله في خلقه.. وأن اختلاف الألوان والألسن والثقافات

مصدر غنى حقيقي للتجربة الإنسانية في امتدادها المكاني وعمقها التاريخي.. وأن (الغير) ليس بالضرورة خصمًا ولا عدوًا ولا هو (الجحيم)، كما يقول سارتر.. وإنما هو -في التصور الإسلامي- نعيم آخر، يستحق التعرف عليه، والتودد إليه، والتواصل معه.. ويلفت النظر أن الآيتين اللتين أشارتا صراحة إلى التعددية القائمة على التنوع والاختلاف قد ختمتا بعبارة واحدة تتضمن توجيهًا لتوظيف هذا التنوع لخدمة الخير والمنفعة العامة، وذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ ﴾ (البقرة:148; المائدة:48).

وقد كان طبيعيًا ومنتظرًا من المسلمين أن يقيموا علاقاتهم بالآخرين على أساس هذه النظرة، ولكن ظروفًا تاريخية عديدة يرجع بعضها للمسلمين أنفسهم ويرجع بعضها (للآخرين) قد غيرت طبيعة هذ العلاقة وجعلتها علامة شك وحذر وسوء ظن يصل أحيانًا إلى حد القطيعة.. وإلى الإحساس المتبادل بالخصومة واستحالة التعاون.

وإذا أراد المسلمون اليوم أن يسهموا من خلال حضارتهم ومجموعة القيم التي تقوم عليها في بناء عالم جديد يشترك في بنائه أتباع الثقافات المختلفة، فإن عليهم أن يعيدوا النظر في علاقاتهم بالآخرين، وأن يجعلوا الإيمان بالتعددية قاعدة إيمانية تقوم عليها مواقف عملية تعيد الأمة بها بناء الجسور مع أتباع الثقافات الأخرى.. وتتفتح بها أزهار المعرفة وتراكمات التجربة الإنسانية عبر العصور.. وعبر الحدود.

وعلى المشتغلين بالفقه في عالمينا العربي والإسلامي أن يعيدوا النظر في كثير مما قرره الفقهاء الأقدمون حول علاقة المسلمين بغير المسلمين، وتقسيم الدنيا إلى دار حرب ودار إسلام.. فتلك صياغات فقهية لا قدسية لها، وبعضها يعبر عن أوضاع تاريخية ظرفية، فلا إلزام لتلك الصياغات إذا تبدلت وتحولت الأوضاع المحيطة بها.

إن هذا الإيمان الأصيل بالتعددية هو أحد الإسهامات الكبرى التي يستطيع المسلمون أن ينشروها بين الناس، مشتركين في ذلك مع الجماعات المنتشرة في الشرق

والغرب، داعية إلى احترام (الآخر) والاعتراف به، وتبادل الأخذ والعطاء مع مكوناته الثقافية.

ولا نجد ما نختم به هذه الدراسة المختصرة خيرًا من معاودة التنبيه إلى العلاقة الوثقى بين ما نحدثه في واقعنا من تغيرات أساسية وبين قدرتنا على الإسهام الفعال في مسيرة النهضة العالمية.. فنحن في الحقيقة نخوض معركتين: إحداهما مع أنفسنا وداخل حدودنا، والأخرى مع (الآخرين) اقترابًا منهم، وتصحيحًا لما يحمله بعضهم من أفكار وتصورات حول الإسلام وحضارته، تناقض المعالم التي حددناها لتلك الحضارة، وتؤخر محاولات الاقتراب والتواصل على المستويات الثقافية والسياسية والاقتصادية على السواء..

وعلى الله تعالى قصد السبيل.